البدل

لفرنسوى كوبه

كان ابن عشر سنين لما قُبض عليه عيَّاراً بطالاً . وهذا ما قالهُ للقاضي :

« ان اسمي جان فرنسوى ليتور . وقد قضيتُ ستة أشهر مع المفني في قهوة الباستيل . لكنهُ كان سكّيراً خليعاً . اساء معاملتي وسامني ما لا يطاق من ضروب الإهانات والارهاق . وكثيراً ما كان يروغ على حرّ وجهي بالضرب ، تارة لطماً وطوراً لكماً ولسعاً فتركتهُ وهمت على وجهي لا ادري أين اذهب . واتفق ان الشرطيّ لقيني البارحة فاعتقلني وجاء بي اليك . وقد عشتُ يتيماً لا اعرف ابي . وكانت امي غسّالة واسمها اديل . تعطفت عليَّ وعنيت بي . وفي ايام الآحاد كانت تستحلني في المساء ان آوي الى مضجعي لكي تتفرّغ للذهاب الى المرقص . أما في ايام الاسبوع فكنت اذهب الى مدرسة الفرير حيث تعلمتُ القراءة . وحدث بعد ذلك ان رجلاً تعرّف بها وتزوجها . وكان زواجها شؤماً عليَّ . فان هذا الرجل ابغضني وسعى بي الى امي واوغر صدرها عليَّ واخذا كلاهما يسرقان في شتمي وضربي . وكنتُ اقضي اياماً خارج البيت هرباً من اضطهادهما لي . ثم أُصيبت امي بمرض عضال فاتت واصبحتُ لطماً . ولجأتُ الى ذلك الملجأ الذي سبق ذكرهُ . فهل انت عازم على الحكم بسجني ؟ »

هذا السؤال وجههُ الى القاضي مفرغاً في قالب الاستخفاف . وكان قزماً اشقر الناصية رثّ الملبس زريّ المنظر . واذ لم يتقدم احد لكفالته والعناية به أمر القاضي بإرساله الى سجن الاحداث

وكان قليل الذكاء وعلى جانب كبير من الكسل . فلم يتعلّم من الصنائع التي يتدرّب عليها المسجونون سوى إصلاح الكراسي . لكنهُ كان سهل الانقياد مطيعاً على الخدوع والسكون . وعدوى الفساد التي سرت اليه من بقية الاحداث لم تكن على اشدّها . وبعد سبع سنين خرج من السجن وابتدأ يتطوف في شوارع باريس حيث وجد لسوء الحظ كثيرين من رفقائه في السجن وهم من شرّ الفتيان أخلاقاً وآداباً . فانقاد اليهم وجاراهم في ارتكاب المعايب والمآثم فاعتقل مرة ثانية وحكم عليه بالحبس سنة في سجن سان بيلاجي حيث جُعل خادماً للمسجونين السياسيين

وبعد انقضاء السنة عاد الى ما كان عليه قبلاً من الطواف والتجوّل في شوارع باريس

ولكن تحت مراقبة الشرطة (رجال البوليس) . وقضى في هذه البطالة سنين يبيع اقذر الثياب وارثها ويتبلغ باسخف الاطعمة وينام في خشن الفراش واجف المضاجع . ثم قُبض عليه مرة بمشاركة بعض البطّل الذين على شاكلته في سرقة السكارى وهم نيام في زوايا الشوارع . فأنكر التهمة وتعلّل بها اشدّ التعلّل وقد يكون صادقاً في ادّعاء البراءة ولكنّ سوابقهُ قامت مقام البيّنة عليه فأُرسل الى سجن بواسي حيث قضى ثلاث سنين . ولما انتهت هذه المدة رجع الى باريس . وبعد ستة أشهر حوكم بتهمة الاشتراك في سرقة وحُكم عليه بالاشغال الشاقة خمس سنوات في سجن طولون حيث لقي الامرّين من عناء الاشغال التي أُرغم على مزاولتها في هذه المدة الطويلة معرَّضاً في الصيف لحارّة القيظ وفي الشتاء لصبارّة البرد

ولدى انقضائها أُرسل تحت المراقبة الى ڤرنو . ولكنهُ تمكّن من الهرب من صفاقُس وجاء الى باريس . ولم يكن معهُ سوى ٥٦ فرنكاً . فقال في نفسه : «هذا المبلغ يكفيني مؤونة التكدية والتسوّل ريثما أجد عملاً اتعاطاهُ » . وكان من حسن حظّه أنّ شمْل رفقائه عشراء السوء تشتت في غيابه فلم يعثر على واحد منهم . وبذل جهدهُ في التواري عن عيون رجال الشحنة (البوليس) واقام في غرفة حقيرة استأجرها من عجوز فقيرة قال لها انهُ واحد من بحّارة سفينة غرقت وذهبت بامتعته واوراقه . فتجا بنفسه وجاء يطلب عملاً يزاولهُ . واستعان على تأييد صحة دعواهُ بتلويح الشمس لوجهه وجسوء يديه (خشونتها من العمل) واستخدامه في كلامه بعض الجمل والعبارات الجارية على السنة البحّارة وكان قد اقتبسها منهم في مبتاء طولون

وحدث ذات يوم أن نفسهُ سوّلت لهُ الخروج من مخبئه والاقدام على التجوّل في الشوارع . وانتهى به التطواف الى حي مونمارتر مستطرد رأسه . ولسوء حظّه اتجهت رأى نفسهُ واقفاً امام باب مدرسة الفرير حيث تعلّم القراءة . وكان اليوم شديد الحرّ والباب مفتوحاً . فوجّه هذا النظر الشريد نظره الى داخل المدرسة واذا كلّ شيء فيها باقٍ على عهده يوم كان من غير ان يطرأ عليه اقل تحوّل . وبعد فريق من الزمن قضاه في التأمل في كل ما وقع تحت نظره رفع عينيه عفواً بلا تروّ الى لوح مرقوم عليه الآية الآتية من الانجيل كنت عدة للمّت يا ربّ يكون فرح في السماء بخاطىء واحد يتوب اكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون الى توبة .

قرأ هذه الآية والتفت الى التلاميذ فرآهم جالسين تكتنفهم البساطة والسرّة

ويرفرف عليهم السلام بذيوله وحواشيه . ثم نظر الى نفسه مدفوعاً بعامل داخلي لم يشعر به قط من قبل . فتمثلت امام عينيه حقيقة حاله . وكاد يلمس بيده شدة قسارة قلبه الذي ظل هذه السنين كلها على صلابته ولم تحدث فيه مرارة الماء والعذاب اقل اثر من الرقة واللين . وهذه التأملات أخطرت على باله ايام طفولته فطار اليها على جناح التصور . ثم اغمض عينيه وانفض رأسه وسار يقرع سن الندم ويتشرب ذيال الغم والاسف

وما عتم ان تذكر الكلمات المكتوبة على اللوح فناجى نفسه قائلاً : — « هل قضي الامر ولات ساعة مندم ؟ ألم يبق في استطاعتي ان انهج كباقي الناس سبيل الاستقامة وآكل خبزي بعرق جبيني وانام ملء جفني لا تنغص عليّ الكوابيس بكلاكلها ولا تروّعني الرؤى والاحلام ؟ ان حجاب تكتمي اكثف جداً من ان تخترقه عيون الرقباء والجواسيس ومعرفتي اصبحت خافية كل الخفاء على الشرطة . فانا في مأمن من هذا القبيل . وجهد البلاء الذي عانيته في الاشغال الشاقة أفادني وأنشأ في قوة على تحمل المشاق يحسدني عليها اشد العمال ساعداً واصلبهم عوداً . هذه اعمال البناء قائمة على قدم وساق في جميع انحاء المدينة . والبناءون في حاجة الى فعلة اقوياء يتسلقون الحبال وعلى ظهورهم اثقل الاحمال . واجرة العامل في اليوم لا تقل عن ثلاثة فرنكات !! ولم اظفر قط باجرة مثل هذه . وغاية ما اتمناه ان انسى ما كنت عليه واعلل نفسي بحسن مآل اصير اليه »

على هذا الامر عقد عزيمته واسعى اليه مطايا الهمة على الامانة والاخلاص . وبعد ثلاثة اشهر تيسر تغيراً تاماً عما كان عليه قبلاً وصار رجلاً آخر متجدداً في أخلاقه واميالهِ وعدّهُ المقاول الذي استخدمه افضل عامل عنده . وكان يقضي نهاره كل يوم على « صقالة » البناء متعرضاً لثوران البرد وهبوب الصبي ويتناول من تحته تقير الطين او الآجر او الحجارة ويناوله لمن فوقه . وفي المساء يذهب ليتناول عشاءه في مطعم رخيص وهو سليم القوى ومرهف الاعضاء ولكنه طيب النفس ومنشرح الصدر غير موجس اقل خوف من رجال الضبطية لانهم قلما يلتفتون بعين الاشتباه الى العمال الدائبين في مزاولة الاعمال الشاقة . وسره جداً انه بات في امان واطمئنان يتملى اليوم الثقيل شأن اللاغبين المتعبين وانه اصبح جزءاً طبيعياً

واسعده الحظ برفيق يعمل معه في صناعة البناء اسمه ساڤينا . وهو فتى ريفي جاء باريس متأهباً للعمل وعاقداً عزمه على التزام خطة الصحو والصلاح واجتناب كل ما

يغار الادب ويضرّ بالصحة . فأنس جان فرنسوى بصحته وطاب نفساً بصداقته راجيةً لقواهُ وامانته وطهارة سريرته . واقام هذان الصديقان معاً في غرفة حسنة الرياش والاثاث. ولقلة دخلهما اضطرّا ان يستعينا على دفع اجرة الغرفة بقبول شخص ثالث معهما من غرب فرنسا اسمهُ هنري

وتوثقت عرى الالفة والصداقة بين هذين الرفيقين وقضيا ايامهما كلها مستطيبين لا يفارق احدهما الآخر . ففي ساعات العمل كانا يشتغلان معاً . وفي اوقات الفراغ ، ايام الآحاد والاعياد، كانا يتنزهان بالتجوال في ضواحي باريس ويستمتعان بلذة المنادمة والمسامرة . وشعر جان فرنسوى بنشوء افكار جديدة فيهِ لم يعرفها من قبل ولاخطرت لهُ ببال. فطفق يسرُّ ويبتهج بكلّ ما ينظرهُ ويسمعهُ ويرد عنهُ بتعلمهِ والاستفادة منهُ

ولكنَّ شيئاً واحداً اقلقهُ واقضَّ مضجعهُ وهو خوفهُ من وقوف سافيا على شيء من ماضيهِ . وكان يغيظهُ جدًّا ان يبدر منهُ ، من وقت الى آخر ، بعض التعابير الحوشية والالفاظ البذيئة التي يكثر ورودها على ألسنة اللصوص والرعاع . فكان ينطق بها على غير انتباه فتجيء ممثلة لحالة حياتهِ السابقة وراسمة لصور نقائصها وعيوبها ومجرّعة لهُ مرارة آلام يشعر بها كلَّ من تنقض جراحهُ قبل الالتئام . وكان يزداد اضطراباً كلما آنس في سافيا تنبهاً جديداً الى امر غريب لم يخطر ببالهِ من قبل . وفي مراقبتهِ لهُ من طرف خفيّ رآهُ يعنى بمكافحة مجاوب المسرّات التي يستهدف لها الشبان في باريس ويبذل جهدهُ في مقاومتها وعصيان داعي النفس اليها ولكنهُ لا يضمن غلبتهُ عليها . وكان كلما استطلع جان اسرار باريس وخفاياها يتجاهلها ويتلطف بتغيير موضوع الحديث وقلبهُ حالٍ لظى القلق من جهة مستقبل صديقهِ

ولم يكن قلقهُ هذا وهميًّا بلا موجب . فان سافيا لم يبل على سذاجتهِ الريفية ومناعتهِ الفطرية كما كان عند ما جاء الى باريس بل اصبح متعرّضاً لتجاوب مسرّات وشهوات يشتدُّ خطرها على من هو غرٌّ مثلهُ في سن العشرين . ولما جاء فصل الربيع شرع يخرج للتمشي وحدهُ . وفي اول الامر اقتصر على الوقوف ايام بعض المراقص ومراقبة الفتيات الداخلات اليها . ثم تدرّج الى الدخول . واخذ جان يلاحظ ما طرأ عليهِ من التغير ، شيئاً فشيئاً ، في اخلاقهِ وعاداتهِ . فمال الى الاستهتار والتبذير . وصار يقترض من صديقهِ بعض المبالغ التي حرص على جمعها ولا يتمّ بردها اليهِ . فساءهُ ذلك لكنهُ كظم غيظهُ ورأى انهُ لا يحقّ لهُ ان يكتمهُ . وظلت هواجسهُ تنذرهُ

يتوقع مكروه يودُّ وقاية صديقه منهُ

وفي مساء يوم إذ كان ساعداً في السلّم الى غرفته في الطبقة الرابعة وهو قلق البال ومضطرب الافكار سمع قبل دخوله الى الغرفة لغطاً رجلية وعرف صوت عنتري المقيم معهُ ومع ساقين . فرابهُ الامر ووقف خارج الباب يسترق السمع ليعلم سبب الشغب فسمع عنتري يخاطب ربّ المنزل عما لا مزيد عليه من الفيظ والحنق قائلاً له :

« من المحقق عندي ان واحداً فتح صندوقي وسرق ثلاثة جنيهات فرنسية ذهباً ، خبأتها في علبة صغيرة . فان لم تكن أخاصمة ماويا قد اوتكبت هذه الفعلة الشنيعة فلا بدَّ ان يكون السارق واحداً من الاثنين المقيمين معي في الغرفة . وهذا الامر يهمك لانك انت ربّ المنزل ومسئول عن كلّ ما يقع فيه . وان لم تدعني افتّش صندوق كلٍّ من جان وساقينا شكوتك الى الحكومة . أسفي على نقودي الذهبية !! فقد كانت هنا امس في هذه العلبة . واني أنبئها لك وصفاً مدقّقاً حتى لا أتّهم بالكذب اذا عثرنا عليها . فواحد منها عليه طراز الامبراطور الكبير (نبوليون الاول) وعلى اثنتي والثالث طغراء الملك فيليب . وعلى طرف واحد منهما اثر عضّة شديدة باسناني . تعال فتّش صندوقي رفيقي والاّ ذهبت وجئتُ بالشرطيّ » فاجابهُ ربُّ المنزل :

« سفتش . وان لم نجد شيئاً فانت المسئول لدى رفيقك عن إهانتها بهذه التهمة »

فدبَّ الرعب في قلب جان فرنسوي . ومع كل ما لاحظهُ على ساقين من الارتباك الملحوظ لم يخطر لهُ ببالهِ ان يتهم هذا الجندي المسكين بالسرقة . فسكت وارتمى وضع يديه على صدره محاولاً تسكين نبضات قلبه السريع . ثم انصت قليلاً لسب عنتري يفتش صناديق الغرباء من داخل الغرفة ويقول :

« هذه هي . خذها يا ربّ المنزل لقد صدق كلامي . وجدتها في صندوق ساقينا الذي لا يفارقهُ . وسوف اجرّ عليه العار والشنار لبقية ما يبقى لهُ من الحياة »

وانذاك سمع جان وقع خطوات ساقين حاضراً الى سلّم السلم . فدخل الغرفة من فوره وخاطب ربّ المنزل وانتهر عنتري قائلاً له بصوت جهوري يكاد يهتز له البناء [illegible] « [illegible] لا يجوز [illegible] ولكني [illegible] ولكني [illegible] الذي [illegible] ولي كلمة اريد ان اقولها امام ساقينا عما حدث »

وعندئذٍ دخل ساڤينا ورأى فضيحة الامر وانهتاك ستر جريمته فوقف كالمصعوق لا يبدي حراكاً . فبادر اليه جان فرنسوي وطوّقهُ بذراعيهِ كأنهُ يروم سلافتهُ وأسرَّ اليهِ في اذنهِ بلهجة الترسُّل والرجاء قائلاً لهُ : الزم الصمت

ثم التفت الى هنري وروب المنزل وقال لهما : «خليا وساڤينا . ولا تُوجسا خوف هربي. ان شئتما فأقفلا علينا . فاني اريد ان اخلو به على انفراد» . واومأ بيدهِ الى الباب فخرجا

فقال جان لساڤينا :— «علمت انك سرقت نقود هنري لتشتري بها هديَّة لاحدى الفتيات . وهي جريمة يعاقب عليها بالسجن ستة أشهر . ولكن شخصاً آخر غيرك خرج مؤخراً من السجن ليعود اليهِ ثانية وهو انا . فقد سبق اني قضيت سبع سنوات في سجن الاحداث وسنة في سجن سان بيلاجي وثلاث سنوات في پواسي وخمساً بالاشغال الشاقة في طولون . وانا في كل حين معرَّض لان يُقبض عليَّ وازجَّ ثانية في السجن لاني هاربٌ منهُ . إذن لكن روعك ولا تخف . فقد وطنت نفسي على هذا الامر واتخذت الاهبة لهُ . وعند ما ينهض الاخ الاكبر باعباء الخدمة العسكرية تسقط تكاليفها عن كاهل الاخ الاصغر . سأقدّم نفسي بدلاً منك . وحسبي انك تقدّر هذه التضحية حق قدرها وستكون حياة السجن اخف وقراً عليَّ منها عليك لاني تعوَّدتها والفتُ تجرُّع مرارتها . وخير جزاء أثاب بهِ على عملي هذا انك لا تذهب باطلاً وان تساعدني الآن امام الله على انك لن تقدم على ارتكاب امر كهذا في المستقبل . اني احببتك يا ساڤينا من صميم فؤادي . وبصداقتك طبتُ نفساً وانعمتُ بالاً . ولم آل جهداً منذ عرفتك ان اقتدي بك واعيش نزيهاً ايساً طاهر القلب واليدين . وقد ساءني اني لم استطع ان ابدك شيئاً واني خدعتك من جهة نفسي . واليوم اعلنتُ انا حقيقتي لانقاذك مما تعرَّضت لهُ . فلا تحزن ولا تبك بل تقدم ما تقضي لاني اشجع وقع اقدام على المسرح . فها هما آتيان ومعهما بعض رجال الشرطة . يجب ان تجلد ولا تدعهم يشكون على اقل أثر للصداقة التي بيننا »

ثم ضمَّ ساڤينا الى صدرهِ ومحا دمعةً عند ما انفتح الباب ودخل روبُ المنزل وهنري ومعهما شرطيٌّ . فتقدم جان فرنسوي نحوهم ومدَّ يديهِ الى الشرطي ليقيّدهما وقال لهُ باسماً : «هيا بنا»

وبتسليم نفسهِ تحققت الحكومة صحة حديثهِ واتضح لها انهُ فارٌّ من السجن فعادت به من مستأنف الاجرام وحكمت عليهِ بالسجن المؤبد

ترجمة : اسعد خليل داغر